

النساء في الكنيسة

الأم خريستوفورا ماتيتشاك

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

إذا دخلت الكنيسة الأرثوذكسية، فسوف تُصدَم بالطبع بأشياء كثيرة. قد تلاحظ أن الذين يقومون بالخدمة، الموجودون في الهيكل المقدس، هم رجال: الكاهن، أو ربّما الشماس معه، أو حتى الأسقف إذا كان موجوداً. يمكن أن يكون هناك صبيان للخدمة، أو قارئون، أو مرتلون في الجوقة. ما هذا؟ يبدو أن الرجال يفعلون كل شيء في الكنيسة. لكنني أود أن ألفت انتباهك إلى بعض الأشياء الأخرى التي قد تفوتك.

بدايةً، إذا كنت تسافر كثيراً في العالم الأرثوذكسي، في هذا البلد أو غيره، إلى كنيستنا أو ديرنا، أو عبر البحار، إلى كاتدرائية كبيرة أو أبرشية ريفية صغيرة، تنتبه إلى مكان إضاءة الشموع في أي وقت، فستجد أن معظم الشموع مُضاءة أمام أيقونة والدة الإله. هي أم الكنيسة، إنها أمنا جميعاً. كما نعلم، عندما كان المسيح على الصليب، قال لحبيبه الرسول يوحنا "هوذا أمك"، ولأمه "هوذا ابنك". في هذه النقطة، وضعنا جميعاً في رعايتها. كيف يستجيب الناس حقاً لذلك! إذا زرت أي منزل أرثوذكسي في هذا البلد أو في أي مكان في العالم، فسترى على الأرجح أيقونة لوالدة الإله، ولعلها الأيقونة الأبرز. ستري من أين تتدفق المحبة وإلى أين. الكثير من الناس يشعرون أنها تفهمنا لأنها بشر ولأنها امرأة. من نواحٍ عديدة، تحصل النساء على هذه الهبة من الله: أن تكون متفهمة وحساسة. إنها هبة من الله. إنها جزء من الجنس (الجنس gender)، جزء من قصد الله. الله خلق الذكر والأنثى. بعض الخصائص الذكورية وبعض الخصائص الأنثوية لا يفصل بينها خط فاصل يحدد كلاً منها؛ هناك توالف دائماً في كل واحد منا. يجب أن يكون هناك انسجام بين هذه الفضائل والخصائص. لكن المرأة تتمتع بهبة روحية عظيمة من الله. يقول أحد الشيوخ في اليونان أن المرأة هي التي تحمل طفلاً وتجلب مع الله حياة جديدة إلى العالم؛ إنها شريكة الله. لقد أعطى الله للمرأة حساً روحياً عظيماً. إنه موهبة وذوق وحنس.

إذا كنت على استعداد للقيام بهذه الرحلة الفكرية معي، فقم بإجراء هذه التجربة بنفسك. مرة أخرى، ادخل إلى كنيسة في هذا البلد، كبيرة أو صغيرة، كنيسة مدينة أو كنيسة ريفية، أو اذهب إلى الخارج، وقم بالعد أو التقط صورة ذهنية. هل ترى في الخدم في تلك الكنيسة رجالاً أكثر أو نساءً؟ من المرجح أن ترى الأكثرية من النساء. إذا كنت تراهن على ذلك، فافعل ما وصفته والأرجح أن هذا ما ستجده.

عادةً في كنائسنا، تحضر نساء وتقمّن بمعظم المهام. الآن هل نرى في ذلك أي نوع من التحقير أو الامتهان بحق الأنثى؟ لا أعتقد ذلك. قَبِلَ المسيحُ النساءَ وأحبهنَّ وتحدث إلى السامرية والكنعانية والنازفة الدم. لقد كان حاضراً لهنّ تماماً. في ثقافته وفي عصره لم يكن هذا سلوكاً مقبولاً دائماً. وهكذا، هو ينتظر في الكنيسة كلاً مئاً، يزرع فينا بذار صورته. هو خلقنا، ذكراً وأنثى، كلٌّ منا على صورته ومثاله.

هل يمكن للمرأة أن تتقدّم في الحياة الروحية؟ هل الرجال وحدهم يتقدّمون؟ لأن الرجال هم الوحيدون الذين يُسامون ويقيمون الليتورجيا. أهذا كل ما يمكن للمرأة أن تبلغه؟ لا أعتقد ذلك. يمكن للمرأة أن تكون قديسة. يجب أن تكون النساء قديسات. نحن النساء في أمريكا (وفي كل العالم: المترجم)، دعوتنا سامية جداً لنصبح قديسات، هذا ما تحتاجه هذه الأمة (وكل العالم: المترجم). ماذا تحتاج أكثر من القديس؟ أحتاج إلى طبيبٍ آخر؟ حسناً، ربما هناك دائماً أشخاص يحتاجون إلى مساعدة طبية. لكن الكثير من الموهوبين والمتعلمين يصبحون أطباء وممرضين جيدين. هل نحن بحاجة إلى مدرّسٍ آخر؟ هل نحن بحاجة إلى عامل اجتماعيٍ آخر؟ هل نحن بحاجة إلى سياسيٍ آخر؟ هناك دائماً شخص ما. لكن ما الذي سيقوي هذه الأمة (وكل العالم: المترجم)؟ ما الذي سيقوي الكنيسة في هذه الأمة غير النساء القديسات؟

كثيرات مئاً تأخذن دعوتنا على محمل الجد لنصبح مائثات لله أكثر فأكثر، وأن نقترّب منه، ونتعرّف عليه ونفعل مشيئته. كنساءٍ، لدينا فرص هائلة ولا توجد حواجز تحول دون ذلك. إن زيارة دير أرثوذكسي للنساء هي أمر رائع بمعنى أنه من الواضح أن هذا الدير مجتمع أمومي. إنهن نساء يعشن مع نساء، ويتحقلن النساء ويفعلن كل ما يُطلب منهن. لذا، فإنه مجتمع رهباني بأكمله، دير بأكمله، دير نساء، في أيدي الراهبات. لا يوجد رجل يستطيع أن يأتي إلى هنا ويخبرنا كيف نعيش حياتنا. لنا بركة أسقفنا وصلاته، وعينه الساهرة. أنا متأكدة من أنه إذا كان هناك أي شيء غير لائق، فسوف يأتي ويصحح ذلك. لكنه ليس هنا لاتخاذ قرارات نيابة عنا، لوضع أي قواعد تتجاوز ما تعطينا إياه الكنيسة نفسها. يأتي كهنة ويحبّون الخدمة في أديرة النساء، وخاصة الكهنة المتقاعدون. هناك تاريخ من السعادة قوامه كهنة متقاعدون خدموا هنا لفترة. إنها فرصة جيدة جداً لهم أن لا يعودوا مسؤولين عن الرعية، وهم ما زالوا يحبون الخدمة. إذا أعطاهم الله الصحة، فإنهم يستمتعون بالخدمة، ويريدون الخدمة، فيمكنهم أن يأتوا لخدمة الليتورجيا، والتمتع ببعض الشركة مع الراهبات أو الزوّار، دون أي داعٍ للقلق بشأن من يحضّر التقديم، ومن يشعل المبخرة، ومن سوف يحضر.

في أديرة النساء، ليس لدينا صبيان للخدمة ولا شمامسة؛ عندنا راهبات يخدمن في الهيكل. قد يبدو هذا شائقاً لكم. هكذا كان بالنسبة لي. لقد نشأت في الكنيسة الأرثوذكسية، وكفتاة صغيرة، فهما جيداً

أن الفتيات لا يدخلن الهيكل. كنت في الخامسة والعشرين من عمري عندما زرت الدير لأول مرة، ولا بد لي من القول أنني عندما رأيت راهبة تخرج من الهيكل تسارع نبض قلبي. فكّرت "يا إلهي! ماذا يحدث هنا؟" لكن بعد ذلك، بالطبع، أدركت أن هذا ضروري. إنه أمر عملي للغاية، والكنيسة واقعية للغاية. لذلك، في دير النساء، إذا كان أحد سيدخل إلى الهيكل لمساعدة الكاهن بإشعال المبخرة أو مناولته الأشياء، أو غلي الماء، أو التنظيف، أو أي عمل آخر، فإن الراهبات هنّ من يقمن بذلك.

هذا ليس من دون بركة. لا تستطيع أي راهبة أن تدخل إلى الهيكل. نحن نحافظ على الهيكل كمكان فائق التوقير. ليس لأي رجل أيضًا أن يدخل الهيكل، فقط الذين يتعين عليهم ذلك. ليس الهيكل مكانًا للتسكع أو لمجرد إثبات أن النساء يمكن أن يدخلن. إنه طاعة خاصة في الدير. تعطي الرئيسة البركة لهذه الراهبة أو تلك لأن تخدم في الهيكل. وهي تتعلم كيفية القيام بذلك وعليها أن تقوم به باحترام. بالطبع، في الدير النسائي، نُؤدّي كل القراءات والإنشاد، كما هو الحال في العديد من رعايانا. هذا مُتاح لنا.

حياة المرأة في الكنيسة هي الذروة، الملاء. هذا ينطبق حتى على أي أم. انظرن إلى والدة تربي أطفالها في عائلة. بادئ ذي بدء، أن تنجب الأطفال. يطلب منك الله أن تلدي أولاده ثم تربيهم. في كل لحظة، لمدة خمسة عشر أو عشرين عامًا، تكون الأم هي الكاهنة في المنزل، والكاهنة لذلك الطفل. إنها تمنحه إرشادًا روحيًا كاملاً وتنشئه، عاطفيًا وجسديًا وتعليميًا، بل وروحياً أيضًا. إذن، حياة صلاتك، علاقتك الحميمة مع الله تنتقل إلى أطفالك. أنت تصلين من أجلهم. أنت علاقتهم الكاملة بالله. هم أصغر من أن يتكلموا، ويتلوا صلواتهم، حتى أنهم أصغر من أن يرسموا إشارة الصليب. نحن نحب مشاهدة الأطفال وهم يرسمون إشارة الصليب. يبلغون من العمر سنة أو سنتين. إنهم يضربون رؤوسهم بشكل ما وينقرّون على صدورهم بأصابعهم، ويعرفون أن هناك شيئًا ما ينبغي القيام به، ولكن الأم تمسك بيد الطفل ببطء وتوضح كيفية إمساك الأصابع الثلاثة، وكيفية وضع اثنين، ثم لمس الجبين والقلب والصدر وكل كتف، وتعلم الطفل شيئًا فشيئًا أن يأتي إلى الله ويقبل الأيقونة، أو يتناول القربان المقدس، وأن يكون لائقًا عند تقدمه إلى الكأس. هذا دور رائع في الكنيسة. إنه الدور الجوهري: أن تكوني أمًا. قد تعتقدين، أنني كرئيسة، لدي سلطة روحية كبيرة. ليس لدي سوى القدر نفسه من السلطة التي تسمح لي بها الأخت في حياتها، أما أم الأسرة فهي كل شيء بالنسبة للرضيع وللطفل، كل ما يتلقاه يأتي من خلالك، بيديك، عبر أنفاسك، بصلاتك. هذا هو الشيء الأعظم. أنت لا تصبحين قديسة لنفسك فحسب، بل تنشئين أيضًا قديسين للكنيسة، وربما تنشئين كهنة للكنيسة أو حتى أسقفًا! أو ربّما رهبانًا وراهبات أو مرتلين. هذه هبة رائعة، شيء رائع يطلبه الله منا كنساء.

* الأم كريستوفورا رئيسة دير التجلي في أيلوود سيتي، بنسلفانيا. هي رئيسة الدير منذ خمس وثلاثين سنة.

Source: Abbess Christophora (Matychak). Women in the Church. OrthoChristian.Com. 11/17/2021

<https://orthochristian.com/142925.html>. Video available: Protecting Veil. <https://www.youtube.com/watch?v=qPZHxaL0nGs>